

التخليع بين الإسبان المسلمين

• مدخل :

إن مجرد قراءة عنوان الموضوع فحسب يومية إلى الأهمية القصوى التي يتضمنها ، والفوائد الجمة التي ينطوي عليها ، وأنه أكثر من مجرد دراسة تنضح بالفضول العلمي ، وتكشف عن الروح التي أظهرها جنسنا في دراسة العلوم والفنون ، عبر حضارة شديدة الاختلاف عن الحضارة المسيحية . أليس من المفيد أن نعرف كيف ، ولماذا ، بلغوا هذا القدر الرفيع من حضارة متوهجة ، على حين أن النهضة العلمية والأدبية في أوروبا ذلك العصر ، كانت - بالكاد - تضيء بشعاع هزيل ؟ . اليس من الأهمية التاريخية بمكان أن نحدد ما إذا كان ذلك غريباً عنا ، ودون أن يؤثر فينا ، أنه على النقيض ، كان المثل الحى الذى يمكن أن نقدمه ليكون دافعاً لنا ، وليشير فى أعماقنا نفس الطموح ، ونفس حب المعرفة وليحملنا أيضاً على احتذاء شىء من تقاليد هذه المدرسة ، ومناهجها ، وبعض كتبها ؟

ولو أن أيا من هذه القضايا لم يحل ، فإن واحدة منها فحسب تكفى لتبرير إصرارى ، حتى ولو لم تعد أن تكون نقطة جذابة فى مواجهة نظامنا الحالى ، وتبدو ملامحه واضحة جلية ، متوهجة الألوان ، لا تخفى على أشد الأنظار سطحية ، ولا عن الملاحظة الأقل اعتناء . ففى عصرنا كل شىء منظم ، وتابع للدولة ، إلى جانب نموذج يستخدم قاعدة لكل المؤسسات التى لها نفس النظام ، وتقوم بنفس الدراسات ، وتلتقى فيه المرايا والنقائص . أما قديماً فتنوع واسع ، وفوضى ظاهرة كالتى نلاحظها فى كل المجالات الطبيعية التى لم تستطع الصناعة الإنسانية أن تحملها على التجمع والاعتدال . ولكن لاشىء غير عادى : المياه تتدفق فى مجاريها الطبيعية ، فتصدع الأرض ، وتحطمها بأوهم شىء منها ، والخضرة لاتنبت إلا حيث الهواء والضوء ، وتربة تثرىها ، ويحدث كما هو الحال فى كل مكان ، أن الجماهير تتزاحم عند السفح ، حيث الأرض رطبة لينة ، بينما قلة تلوذ وحدها بالقمم العالية ، ليس لديها من الماء إلا قطرات من المطر توافيهم به السماء من حين لآخر ، ولكنهم على النقيض يتمتعون بجو صاف نقى ، ويستطيعون أن يستمتعوا بالنظرة العميقة إلى الآفاق الممتدة العريضة .

ومن هذا التنوع نفسه تنبثق إحدى الصعوبات الكبرى التي كان علي أن أواجهها في بحثي . فلو كان ثمة إطارات تربوية منظمة ، تجمل وتجسم ألوان التعليم المختلفة ، لاتخذنا منها مثلاً ، ولأصبح العمل أكثر سهولة نسبياً ، فندرس ملامح هذه المؤسسات ونحتفظ بها في ذواكرنا ، ولكن .. لا شيء من هذا ! . كان من الضروري أن نمضي ، على الأقل ، من أستاذ لأستاذ ، ومن قرية إلى قرية ، ومن مدينة إلى أخرى ، ومن عصر لآخر ، وأن نعمن النظر في كل شيء ، ثم نعمم ونحدّد التقاليد التربوية من خلال التفاصيل في أغلب الأحوال .

وبلغت هذه الصعوبة غايتها حين افتقدنا أى دليل يهديننا إلى الطريق الذي يجب أن نسلكه ، فلا العرب^(١) ، ولا المستشرقون الأوربيون ، درسوا هذه المادة قاصدين ، وفي جملتها . وعلى النقيض ، كان علي أن أنتصر على عدد غير قليل من المزاعم الباطلة التي ترسبت في أعماقي بتأثير آراء بعض هؤلاء المستشرقين ، وأحكام انتهوا إليها تناقض الحقيقة ، وكان علي أن أنساها لتتجه عنايتي إلى الوثائق التي وصلتنا عن تلك العصور فحسب . ولأنهم جميعاً سبقونى فضلاً ، ويفضلونى ثقة ، فما أنتهى إليه من نتائج ليس كافياً وحده لمواجهة ما انتهوا إليه ، إذا لم يحمل معه البراهين المتصلة بها ، ولهذا وجدتنى في حاجة إلى أن أضفى على دراستي لونا من التفصيل والتحليل ، ولكم تمنيت أن أدع هذا لأعفى سامعي من الملل ، ولكن ، بما أنكم تعودتم على جفاف البحث العلمى فستغفرون لى هذا دون أدنى صعوبة .

وأطمأنكم على أية حال ، لقد فعلت كل ما فى ذرعى لكى لا أحمل المادة شيئاً من الترهات التقنية ، أو الاستطرادات المملة ، ونقلت بعضاً إلى الهوامش ، واستبعدت فى كثير من الأحوال بعض الأشياء الصغيرة ، التى ربما ينظر إليها بعض المتخصصين بعينى

(١) كان ابن خلدون الوحيد الذى عرض لموضوع التعليم فى إسبانيا فى فصول من « مقدمة تاريخه » ، وحصلت على نسخة منها فى الملحظة التى انتهت فيها من بحثى تقريبا . وعلى أية حال فقد جاءتنى فى وقتها ، واستطلعت فى ضوئها أن أصحح بعض الأشياء ، وأن أتأكد من أشياء أخرى .

● ملاحظة المؤلف تصدق فى وقتها على مشرق الإسلام ومغرب ، أما اليوم فهى تصدق على الأندلس فحسب ، أما الترية فى المشرق ، أو بعامة ، فقد خصها علماء أجلاء بدراسة شاملة ، أو وقفوها على مرحلة أو منطقة بعينها . وأشير بخاصة إلى كتاب العالم الجليل الدكتور أحمد عزت عبد الكريم عن تاريخ التعليم فى مصر الحديثة ، وجاء فى ثلاثة أجزاء .

الإعجاب والرضا ، وسوف يلحظون غيابها على التأكيد ، ولكنها لا تهتم عامة الناس ،
ومن أجلهم رغبت في أن يكون بحثي ميداناً مفتوحاً للجميع .

ومهما يكن فإن هذا العمل لابد أن يشوبه النقص ، لا لقلة الكتب والمخطوطات
العربية التي تيسرت لي فحسب ، وإنما - إلى جانب ذلك - لسوء التخطيط ، ورداءة
العرض ، ولست أقول هذا تواضعاً أعتذر به عن قلة مهارتي ، وضعف براعتي ،
لأنني حتى لو كونت فكرة دقيقة عن إمكاناتي وذكائتي فسأظل أفكر على هذا النحو
لسبب بسيط جداً ، هو أنني أرى من المستحيل أن أقوم على نحو مرض بمهنتين على
أن أؤديهما في الوقت نفسه : دور العامل ودور المهندس . لم يكن في وسعي أن
أرسم الخطة سلفاً ، لأن هذا ، فيما أرى ، يتوقف على طبيعة المادة ، وكان على أن
أبحث عنها ، وأن ألتقطها ، دون أن أعرف أيها أكثر مناسبة للبناء القادم ، وهو معقد
التخطيط ، وكان يحدث لي أحياناً ألا أهتم ببعض المعلومات ، ثم أجد فيما بعد أنها
ضرورية ، وتجيء في موضعها دقيقة ومناسبة كالحاتم من الإصبع ، وأحس فقط
بأنني استهنت بها حين تكون فرصة علاج هذا الإهمال قد فاتت . وأخرى كان على
أن أعاني من الأسف حين أراني مضطراً إلى طرحها ، حيث لا فائدة منها ، وهي
التي كلفتني أحياناً جهداً أكبر ، ومتابعة أشد ، ويحدث حين أستمتع بالتفاصيل أن
أفقد الفكرة العامة ، وعندما أنظر إلى الموضوع إجمالاً أن أحتقر تفصيلات مفيدة ،
كلفني الحصول عليها جهداً كبيراً .

ومع ذلك لم أفقد الأمل ، على الأقل في جودة الموضوع وفائدته ، وأنه جدير منكم
بأن تستمعوا إليه راضين .

ولدراسة الموضوع المعروض عليكم في شيء من النظام سوف أسير فيه على المنهج
التالي : موقف الدولة من التعليم ، ومناهجه ، ومادته ، والأساتذة ، والطلاب
والدروس ، والدرجات ، والمكتبات ، ثم أنهيته ببعض الملاحظات عن المرأة المسلمة
في وطننا .

● موقف الدولة :

تعودنا ، كما كان عليه الحال منذ القدم في الدول الأوربية التي تعاورت طلائع الحضارة ،
أن ععب إنشاء المؤسسات التعليمية ، ورعايتها والعناية بها ، والإنفاق عليها ، يقع على
عاتق الحكومات ، وليس من الغريب إذن أن يثير الغبطة والاطمئنان والرضى في أعماقنا

أى شعب ، فى أى عصر ، ومن أى جنس ، يتميز بين الشعوب الأخرى ، ويبلغ درجة عالية من التوجه العلمى والأدبى ، وأنه حققها بوسائل تشبه ما عليه مؤسساتنا المعاصرة . ومع ذلك ، فالتاريخ يكذب ذلك بطريقة قاطعة وحاسمة ، فلا اليونان ، ولا الرومان ، احتاجوا إلى هذه الوسائل ، لكى يصبحوا أساتذة العالم .

يجب أن أعزو عبارات المستشرقين التى لا تنهض على أساس ، رغم ثقتنا فيهم أمثال : البارون فون شاك^(١) وديجا^(٢) ، وأرتين باشا^(٣) و دودزى^(٤) وغيرهم ، إلى مثل ذلك الأمل ، وساعد عليه فى هذه الحالة بعض الأحداث الصعبة التفسير ، والمشكوك فيها ، وتجيء منزلة عبر الأخبار الجافة التى تقدمها لنا مدونات ذلك العصر ، والتى يمكن أن نفهم منها أن البلاد الإسلامية عرفت فى القرن الثالث ، أو الرابع ، الهجرى مدارس تنفق عليها الدولة ، أو هيئات جامعية منظمة على النحو الذى كانت عليه الجامعات قديما أو فى عصرنا الحديث .

وقد دفعنا التقدير الذى تستحقه آراء هؤلاء المستشرقين الأجلاء إلى أن نبدأ بدراسة الوقائع التى أمكنها أن تلهمهم مثل هذه الأفكار . وإلى جانب ذلك ، من الأوفق لنا أن نقرر منذ اللحظة الأولى أن السياسة الرئيسية التى كانت سائدة فى ذلك العصر فى كل شىء ، ومن بينها المادة التى ندرسها ، أن الدولة ليس لها أى تدخل مباشر فى التعليم ، والأحداث التاريخية التى من هذا القبيل يمكن البرهنة على سلبيتها أحيانا ، إذا أمكن أن نستدل على وجودها ، أو وقوعها ، فى مكان ما ، وعلى أنها فى الوقت نفسه لا يمكن

(١) فى كتابه : « شعر العرب وفتحهم فى إسبانيا وصقلية » ، ترجمة خوان باليرا ، ج١ ص ٦٧ الطبعة الثالثة .
● هذا ، وقد ترجمت الكتاب إلى اللغة العربية ، وصدر منه فعلا الجزء الخاص بالفن ، عن دار المعارف ، بعنوان « الفن العربى فى إسبانيا وصقلية » القاهرة ١٩٨٠ . والطبعة الثانية ١٩٨٥ ، كما صدر الجزء الأول بعنوان الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية ، عن دار المعارف ١٩٩١ ، والجزء الثانى والأخير سوف يصدر قريبا .

(٢) فى مقدمته لكتاب نفتح الطيب للمقرى ، فى طبعته الأوربية ، ص ٤٥ . حيث يؤكد ، دون أساس ، بأنه كانت هناك أكاديمية رسمية فى قرطبة ، وفيها كانت تدرس الفلسفة .

(٣) التعليم فى مصر ، باللغة الفرنسية ، باريس ١٨٨٩ ، ص ٣١ ، واعتمد على رأى المستشرق الفرنسى

Houdas

(٤) لابد من استثناء هذا المؤرخ العظيم ، والذى أجله كاستاذ شهير ، وقد استخدم تعبير جامعة قرطبة Universidad de cordoba عندما تحدث عن الدراسات فى هذه المدينة فى كتابه « تاريخ مسلمى إسبانيا » ج٢ ص ١١٠ ، ولعله لم يرد أن يقول إنه كانت هناك مؤسسة جامعية ، وهو على الأقل ما يفهم من كلمة جامعة فى معناها البدائى جدا ، لأنه يعرف أكيدا أن ابن سعيد يقول إن الإسبان المسلمين لم تكن لديهم كليات جامعية تنفق عليها الدولة . ومع ذلك فإن كلماته ترجمت حرفيا ، حتى من أدباء القاهرة أنفسهم ، وهو ما لفت إنتباهنا .

أن تحدث في مكان آخر . ولكن ، ماذا نقول لنرفض التأكيد بأن هشاما الأول أنشأ المدارس ، وهي الفكرة التي دافع عنها كوندى Conde ، ورددها كثيرون نقلوا عنه . أو أن الأمويين أنشأوا « المجامع » التي تدرس العلوم والفنون على ما أشار إليه ديجا Diga ؟ . إن الجواب الوحيد الذي يمكن أن أرد به أننا لم نر أثرا أو ملمحا لما يقولون في أى مصدر تاريخي جدير بالثقة . وعلى النقيض ، فإن كل أساتذة العصور الأولى بلغوا ما وصلوا إليه دون أن يكونوا مسجلين في أية مؤسسة تربوية وتعليمهم كان خاصا كله ، ويتم بالتفاهم بين الأستاذ والطالب ، في استقلال مطلق ، وبعيدا عن السلطة العامة تماما .

نعم ، في الحقيقة مال هشام الأول منذ بدء إمارته تقريبًا ، وصنع خلفاؤه من بعده بعامة الشيء نفسه ، إلى رجال العلم ، الذين تفقهوا في المذهب المالكي ، واعتنقوا مذهب إمام أهل المدينة ، واختار من بين كبار الفقهاء وأتقاهم ، ومن نالوا احترامًا مرموقًا بين عامة الناس ، ليتولوا المناصب الدينية ، ومنصب القضاء من بينها بخاصة ، وبهذا المعنى يمكن القول إنه شجع على دراسة مبادئ المذهب المالكي والكتب التي ألفت فيه . ولكن هل لهذا أية صلة بإنشاء المدارس ، والمجامع ، أو أى شيء شبيه بها ؟ . إذا كان الأمويون منذ بدء دولتهم إلى أن تولى الحكم الثانى الخلافة قد صنعوا شيئًا يتصل بهذا الأمر ، فهو لا يزيد عن الحرص على حرية التعليم في مواجهة النظرة الضيقة والأنانية التي اتسم بها فقهاء المذهب المالكي في إسبانيا الإسلامية ، والذين حاولوا احتكار التعليم ، وصنعوا ما في طاقتهم لكي يحولوا دون قيام أية دراسة تختلف عن مذهبهم . وبخاصة في مادتي الفقه والتوحيد .

وقد حقق الحكم الثانى بعض الأعمال في هذا المجال ، ولو أنها موضع شك فيما يتصل بطبيعتها ، ففي أيام والده عبد الرحمن الناصر ، وكان وليا للعهد ثم تولى الخلافة بعده ، وفد على البلاط علماء من المشرق وبعضهم كان يتمتع بشهرة علمية عالية ، وذكر حسن مستطير ، فكان يستقبلهم ، ويدفع لهم في سخاء رواتب عالية ، وأخذ هؤلاء العلماء ، بإشارة منه ، يلقون دروسا ومحاضرات عامة في مسجد الزهراء الجامع ، وفي أمكنة أخرى من قرطبة ، وتعود خاصة الناس في المدينة أن يحضروا هذه الدروس . ولكن إذا تأملنا هذا الأمر فإنه لا يكفى وحده لكي نفهم منه أن الخليفة اهتم كرئيس للدولة بتعليم رعاياه .

نحن نعرف أن ابن عبد الرحمن الناصر أظهر منذ كان شابا رغبة مكينة في التعلم ، وحبًا جارفًا للعلم ، ولم تكن أمور الحكم تشغله عنه أو تصرف اهتمامه به ، لأن سفينة

الدولة كانت تشق طريقها على ما يرام ، بوجهها والده الريان الخبير الماهر ، وقد امتدت به الحياة طويلا مما أتاح لابنه أن ينفق الجانب الأكبر من حياته فى مناهج الدرس ، وأن يكون على حريته ، محاطا بكتبه ، وحيدا بين أبهاء مكتبته الضخمة ، الغنية بروائع المؤلفات . ومع ذلك ، كان ينقصه ما هو جوهرى ، وما يستطيع أن يحصل عليه أقل رعيته ثراء بأرخص التكاليف ، فهؤلاء الذين يفيض داخلهم بالدوافع النبيلة من حب الدرس ، والرغبة فى العلم ، يجدون الطريق أمامهم مفتوحا إلى المشرق ، مهد المعرفة وشاع أمر هذه الرحلات وذاع فى عصر يسوده السلام والأزدهار ، وهناك يستطيعون أن يختلفوا إلى مدارسهم ، وأن يحضروا دروس أشهر أساتذته ، وأن يترددوا على حلقاتهم ، وأن يحصلوا على الكتب ينسخونها من مؤلفيها إماء ، على حين أن الحكم الثانى بوصفه أميراً ، ويتسبب فى أسرة ملكية على خلاف تام مع الأسرة الحاكمة فى المشرق ، لا يستطيع أن يفارق قصره ، حتى ولا ضائعا بين غمار الطلاب فى مدينته نفسها قرطبة ، ولا أن يتردد بشخصه على المكتبات والمزادات ليشتري خير الكتب التى تعرض هناك . ومع ذلك فإن ثروته تسمح له بأن يستعيز عن هذا النقص بوسيلة أخرى ، فإذا افتقد حرية الذهاب إلى المشرق فإنه يستطيع أن يأتى بعلمائه من هناك إلى قرطبة ، مهما كلفه الأمر ، وإذا لم يكن بوسعه أن ينسخ الكتب لنفسه من مؤلفيها مباشرة فسوف يعهد إلى من يأتىه بالكتب الأصلية نفسها ، التى خطها المؤلفون بأقلامهم ، ويطلب فيها أصحابها عادة أثمانا باهظة .

لم يأت الحكم إذاً بالأساتذة حبا فى أن يتعلم الآخرون ، لأن هؤلاء لديهم ما هو أفضل وأرخص ، وإنما إرضاء لرغبته الشخصية . ولكن ما إن يصل هؤلاء العلماء إلى قرطبة ، ويصبحون فى بلاطة أعلى جوهرة ، حتى يعهد إليهم ، بالمفهوم الذى أشرنا إليه ، بأن يلقوا محاضراتهم فى مسجد الزهراء الجامع ، حيث تتردد عليهم صفوة الخاصة فى المجتمع القرطبي ، واعية تماما مقدار الاحترام الذى استقبلهم به الأمير .

وكان الحكم يجرى عليهم رواتب عالية ، ويقطعهم أراضى واسعة مقابل الاستمتاع ببقائهم إلى جواره ، والاستفادة من دروسهم فى المسجد ، والإشراف على معارضة الكتب التى بسودها النساخ فى مكتبته وتصحيحها ، والحوار فى مجلسه حول الأدب والفن ومسائل شتى . وبينهم من يرضى زهوه فيهدى إليه الكتب التى يؤلفها ، وإذا كانوا شعراء أو خطباء أظهروا مواهبهم فى حفلات البلاط الفخيمة ، التى تقام عند

استقبال السفارات الأجنبية ، أو تشریف كبار موظفی للدولة ، فينشدون قصائدهم ، أو يلقون خطبهم ، في مدح الخليفة ، وذلك على نحو ما كان يصنع مع الموسيقين والمغنين الذين كانوا يطربونه في الحفلات ، وفي الاجتماعات العائلية والخاصة .

وفي ضوء هذه النتائج يمكن أن نعرف طبيعة العمل أيضا ، فهذه المحاضرات ، أو الأملی ، التي يلقيها الأساتذة العلماء في المساجد ، ويجرى عليهم البلاط من أجلها رواتب عالية ، لاتدوم أكثر من الوقت الذي يحقق رغبة الأمير ، دون أن ينتهي بها الأمر أبدا لتصبح « مجمعا علميا » منظما ودائما ، أو كليات جامعية ، أو مدارس قائمة مستمرة ، تتفق عليها الدولة .

وبعد ذلك كله ، فهذه ليست حالة فريدة في التاريخ الإسلامي ، فقبل ذلك وبعده ، هنا في أسبانيا الإسلامية وهناك في المشرق ، كان مثل ذلك يحدث غالبا بين ملوك الدول صغيرة أو كبيرة ، ولكن .. يجب أن نعترف بأن صنيع الحكم الثاني ترك أبلغ الأثر في أعماقنا ، بروعة هباته وضخامة أوقافه ، وتعددتها من حين لآخر ، وبخاصة لشهرة عمل آخر قام به ، ولون خيالنا بظلال خطيرة ، صبغنا بها أيضا بقية الأعمال التي قام بها ، وأعنى به وقفه ضياعه لتدفع منها مرتبات اثنتين وعشرين مدرسة أقامها في قرطبة ، وهنا يمكن أن نضع يدنا أكيدا على تدخل مباشر من الدولة في شئون التعليم ، ومن السهل أن تقع في إغراء مد هذا الاتجاه إلى أعمال أخرى ، لأنه يحدث لنا مع الوقائع ما يحدث مع الأشياء البعيدة التي تحدد الأفق ، فمع هذه تضييع التفاصيل ، ولا نبصر من الأشكال إلا ملامح غائمة غير ثابتة فحسب ، وكذلك ننسى في تلك الأعمال الأسباب الجوهرية لأنها ذات طبيعة شخصية وعابرة ، وتأخذ الأعمال الثانوية قيمة أكثر في أعيننا ، بسبب التأثيرات الدائمة التي تحدثها في أعماقنا .

فلنحاول أن ندرس الظروف التي أحاطت بهذه الواقعة^(١) : لقد تولى الحكم الثاني الخلافة وله من العمر ثمانية وأربعون عاما ، وهي أكثر من كافية لكي تكون لديه خطط

(١) استطعت ، لحسن الحظ ، أن أفيد من فقرة مفصلة في كتاب تاريخ يتضمن أخبارا وافية ، لمؤرخ عاصر هذه الأحداث ، وأعنى بها مخطوطة كتاب ابن حيان ، وقد حصل عليها أساتذنا الجليل السنور فرانسيسكو كوديرة من قريب ، في رحلته إلى شمال أفريقية ، وقام بها لحساب أكاديمية التاريخ في مدريد ، وتوجد في محفوظاتها ، وهذا الجزء جديد تماما ، وتعرفه أوروبا للمرة الأولى . انظر : مهمة تاريخية في الجزائر وتونس ، ص ٨٥ ، مدريد . ١٨٩٢ .

تربوية ناضجة لو أراد ، يمكن أن ينفذها يوما في حياته ، ومع ذلك بدأ حكمه دون أن يبدى اهتماما بتلك الغايات ، وممرت أربعة عشر عاما وهو على هذا الحال . وأخيرا ، فى النهاية ، وهو فى الثانية والستين من عمره ، وقد ذبلت زهرة حياته ، وبهت حبه للأدب ، أحس ذات يوم بألم خطير يهاجمه ، شخصه الأطباء بأنه داء السكته ، وكوايس مخيفة ، وأطياف مزعجة من الأحلام ترعبه ، تحزنه وتوهن من عزيمته ، وحبس نفسه فى داره ، ولم يعد أحد يراه غير أسرته ، ولم يكن يسمح حتى لموظفى البلاط بالدخول إلى حضرته ، وعرف الناس أن شيئا خطيرا أصاب الخليفة ، وبدأت الدعوات بأن يرد الله له صحته ويهبه عاجل الشفاء ، وممرت أربعين يوما على هذا النحو .

يمكن أن ندرك بسهولة التأثير المعنوى الذى أحدثه المرض فى روح الأمير من الموقف التالى^(١) :

« وفى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول (٣٦٤هـ) منها ، طاف على الخليفة الحكم طائف ألم منعه من الظهور لأهل مملكته ، وأشفتت الرعية لما عراه وارتمضت ، وأعلنت الأدعية إلى الله تعالى فى تعجيل فرجه ، واحتجب أمير المؤمنين عن جميع أهل مملكته ، متدعا فى علته ، من يوم الأحد المؤرخ إلى أن تخفف من وصبه ، وغازلته عافيته ، وظهر لخاصته أول ظهوره ، وذلك يوم الجمعة لليلة بقيت من ربيع الآخر بعده ، فأوصل إلى نفسه الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان ، فكان أول من وصل إليه من وزرائه ورجال مملكته ، اختصه على نظرائه ، وقدمه على

(١) لم يكن هذا النص قد نشر فى حياة المؤلف ، ومخطوطاته وحيدة ، عسيرة القراءة ، وكثيرة الأخطاء ، واعتذر فى المامش عن إيجازه بما لى : « لكى يأخذ القارئ فكرة عن النصوص التى أوحى إلى بهذا التفسير التقطت بعض الأخبار التى وردت فى تاريخ المقتبس لابن حيان ، ولم أجروا على نشر النص العربى لأن إيراده يقتضى أن أورد جميع الأحداث التى أشار إليها هناك ، وتشير إلى بعض أحداث الدولة ، واستقبالات تجرى فى القصر ، وحتى سقوط الثلج وفضان النهر ، وغيرها مما يحدث فى قرطبة .

والمخطوطة ، وليست بالغة الصحة فضلا عن كونها وحيدة ، من الصعب تصحيحها ومعارضتها فى جو العجلة الذى أحاط بهذه الدراسة ، ومع ذلك كان لمجمع التاريخ فضل أنه تركنى أستخدم المخطوطة على حريرى فى بيتى أو فى مكتبة الجامعة .

وبعد ذلك أورد المؤلف فقرات طويلة مقتبسة من « المقتبس » ، ولما كان الدكتور عبد الرحمن على حجبى قد نشر المخطوطة وبذل فيها جهدا ، فقد رأيت بدل أن أترجم ما التقطه فى فصل الكتاب ، وأن أتى على النص المقتبس فى المامش ، أن أنقل النص كله فى الأصل ، مستغنيا به عن هذا وذلك ، وقد أسقطت الشعر والتفاصيل المتصلة بالأسماء فحسب ، انظر المقتبس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن حجبى ، ص ٢١١ وما بعدها .

قرنائه تشريفا له ، وإظهارا لخصوصيته به ، وعمله القريب لديه ، وتوصل إليه في هذا اليوم بعينه أكبر الفتيان الخلفاء الصقالبة ، فعم الاستبشار ، وشملت المسار ، واختلصت الأدعية ، وقضيت النذور ، وجال المبشرون على أفناء الناس يبشرونهم باستبلال خليفتهم ، ويستخلصون له أدعيتهم ، فتلاقوا أفواجا يتهانون بينهم نعمة الله عليهم بعافية إمامهم ، ويضرعون له في تكميلها له ، وفسحة إمتاعهم به ، وإكمال المنة عليه وعليهم فيه ، وقالت الشعراء في ذكر هذا الطائف به ، وانجلائه عنه ، فأكثرت ...

« وفي أعقاب ربيع الآخر أنفذ الخليفة إعتاق جمع كثير من عبيد له ، وإماء تنيف عدتهم على مائة رقبة . وانعقد لكثير منهم عتق بات ، ول بعضهم عتق مؤجل ، ول بعضهم تدبير ، خلص به جميعهم من الرق ، وعقدت الوثائق المحكمة العقد لجميعهم ، فكان أول من أوقع شهادته فيها الأمير أبو الوليد هشام المرشح لولاية عهده بخط يده ، وتلاه أعمامه الأخوة ، ثم الوزراء على مراتبهم ، ثم قاضى الجماعة محمد بن إسحاق ، ووليه الحكام والفقهاء أهل الشورى ، ثم العدول .

« وفي صدر جمادى الأولى تلوه أنفذ الخليفة تجميع حوائت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذى كان قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة ، وأشهد القاضى محمد بن إسحاق فى هذا التجميع يوم الجمعة ، لسبع خلون منه ، فعظمت به المنفعة ، وجلت المنقبة ، وورث الله به القرآن أمة لم يكن آباؤهم يعرضونهم لورائته .

« فلما كان يوم السبت لثمان خلون منه ، أنفذ الخليفة عزمه فى اسقاط سدس جميع مغرم الحشد الآزف حلول أدائه ، على جميع الرعايا بكور الأندلس ، وعهد أن يكون هذا السدس المسقط مكشوفاً لجميع الرعايا ، شائعا فى الناس ، يستوى فى معرفته العالم منهم والجاهل ، فيسبق إلى كل من وجب عليه مغرم معرفة السدس الساقط منه قبل أن يأتى القابض ، ترفيها لهم واهتبالا بمصالحهم ، وأنفذ بذلك إلى الأقطار كتابا ... »^(١) .

من الواضح أن إنشاء هذه المدارس ، فى مثل هذه الظروف ، لا يعود إلى عمل ملكى ، وإنما مصدره توبة شخصية ، ربما دفعه الفقهاء إليها . ولهذا وقف بها عند

(١) نص الكتاب ، وهو قطعة من الأدب الإدارى الرفيع تجده كاملا فى : ابن حيان ، المقتبس ، الجزء الذى حققه الدكتور عبد الرحمن حجي ، ١٩٦٥ ، ص ٢٠٧ و ٢٠٨ .

التعليم الدينى ، ولم يكن المادة الوحيدة التى تدرس فى التعليم الابتدائى فى إسبانيا الإسلامية ، ولا تمتد إلى غير الفقراء البائسين ، ولا تتجاوز مدينة قرطبة إلى غيرها ، وكانت موضع الرعاية الشخصية الدائمة من الأمراء ، لأن إقامتهم فيها .

ولقد صنع الحكم هذا كما صنعه مسلمون أتقياء آخرون كثيرون ، قبله ومن بعده ، فى أوج حياتهم أو هم على عتبة الآخرة ، وهو أمر كان يحدث كثيرا^(١) .

وقد حاول المنصور بن أبى عامر أن يقلد الخلفاء تقليدا أعمى تقريبا ، فيما يتصل بروعة البلاط وأبهرته ، وحاول أن يجذب إليه العلماء المشاركة ، وأن يسخو عليهم فى العطاء ، وأن يعيدوا فى مقره الملكى من قصر الزاهرة ما كانوا يفعلون فى قصر الزهراء^(٢) ، ولكنى لم أجد أى خبر عنه يومئى إلى أنه أنشأ مدارس دينية للأطفال ، على الرغم من حرصه الشديد فى أن يستفيد من أهمية الفقهاء ، وأن يكسب عن طريقهم شعبية واسعة بين عامة الناس ، وأخيرا لم يكن فى حاجة لأن يتوب امرؤ برهن على تدينه ، بأن أحرق بيديه الكتب الممنوعة التى خلفها الحكم فى مكتبته ، حتى ولو كانت قائمة ذنوبه غير قصيرة .

هكذا كان حال التعليم خلال الأعوام التى صحبت سقوط الدولة الأموية فى الأندلس ، ثم مرت أيام دول الطوائف ، والمرابطين ، والموحدين من بعدهم ، دون أن تتدخل الدولة مباشرة فى شئون التعليم ، ويقول ابن سعيد عنهم : « العالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ، ومع ذلك فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم ، بل يقرءون جميع العلوم فى المساجد بأجرة ، فهم يقرءون لأن يعلموا ، لا لأن يأخذوا جاريا »^(٣) .

(١) حتى الشعوب الصغيرة كان لديها مدارس تنفق عليها من الصدقات والهبات التى يوقفها الأفراد . انظر المعاهدات التى عقدها خايمة (جاكمة فى المصادر العربية القديمة) مع مسلمى اسليدا Eslida وأوشو Uxo ، وريضى شاطبة وغيرها ، فى كتاب : خائبر ، الظروف الاجتماعية للموريسكيين فى إسبانيا ، ص ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ . وفرنانديث جونثال : الحالة الاجتماعية والسياسية للمدجنين ، وأيضا نص المعاهدة الخاصة بتسليم غرناطة ، فى الكتاب الأول ص ٢٢٧ ، وفى كتاب الثانى ص ٤٢٦ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن مدينتى الزهراء والزاهرة يمكن الرجوع إلى كتاب : الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، تأليف فون شاك ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ص ٤١ - ٤٨ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة . ١٩٨٥ .

(٣) عن المقرئ ، ج ١ ص ١٣٦ ، طبعة ليدن ١٨٥٥ - ١٨٦٠ .

ومع ذلك لا أقول إن الذى حدث هنا فى زمن بنى أمية ، أو فى زمن العباسيين فى المشرق لم يكن سابقة علينا أن نأخذها فى الحسبان ، حين نفسر التطور الذى لوحظ فيما بعد فى البلاد الإسلامية ، لأن الآخرين كان عليهم أن يقلدوهم فيما هو ثانوى ، وهو تعليم رعاياهم . ولكن يجب أن أصرح بأن الحاجة إليه ، فيما يبدو ، لم تكن ملححة فى إسبانيا ، ولم يشعر الناس بحاجتهم إلى أن تسهل لهم الدولة وسائل التعليم ، لأن المسلمين فقدوا الجانب الأكبر من المدن والممالك التى كانت فى حوزتهم فى إسبانيا ، قبل أن يدركهم الانحطاط الثقافى ، أما فى المشرق فقد بدأوا يشعرون بذلك سريعا ، لأن التعليم شاخ ، والحمية الأولى خمدت ، وهناك ، فى المشرق الإسلامى ولد الطراز الجديد فى نظم التعليم ، وهو الذى قلدته بقية الممالك الإسلامية فيما بعد ، واتخذته أوروبا ، فيما أرى ، مثلا لها تحذيه ، وأقامت جامعاتها على منواله فى العصور الوسطى .

ويقال إن نظام الملك ، الوزير الذائع الصيت للسلطان التركى ألب أرسلان ، أنشأ فى بغداد ، بإيعاز من أبى سعيد الصوفى أول وأشهر جامعة فيما بعد ، على امتداد العالم الإسلامى كله ، عام ٤٥٧هـ - ١٠٦٥م ، وحملت اسمه فعرفت باسم « المدرسة النظامية »^(١) ، ولم يكن ينقصها شيء عند تأسيسها : كان لها بناؤها الخاص بها ، وأملاك عريضة واسعة فى الريف وفى المدينة ، ينفق من ريعها على الأساتذة والطلاب ، ويشرف عليها رئيس ، وحظيت المدرسة بالقبول والإقبال ، ولم تمض أعوام على إنشائها حتى شهدت نيسابور ، والبصرة ، ومرو ، ودمشق ، وحلب ، والقدس ، والقاهرة ، والإسكندرية ، قيام مؤسسات جديدة فى داخلها شبيهة بالمدرسة النظامية ، وأعجب بها أوائل النصرى الأوربيون الذى اشتركوا فى الحروب الصليبية .

وفى أوروبا كان النورمانديون الذين استولوا على صقلية من المسلمين ، أول من أنشأ مؤسسة تعليمية فى أوروبا فى مستوى الجامعات ، وأعنى بها مدرسة الطب فى سالرنو ، وكانت فى تقالدها ، وكتبها ، وأساتذتها ، عربية فى الجانب الأكبر منها . وكان الأمراء النورمانديون أنفسهم شرقيين خلصا فى حياتهم ، وليس لهم من المسيحية إلا التعميد ، لأن حفلات بلاطهم ، وطريقة حكمهم ، وكتابات نقودهم ، ونقوش صدورهم ، وحتى

(١) انظر : ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ، وأبو بكر الطرطوشى فى كتابه « سراج الملوك » ، وانظر دراستى عن « أصل المدرسة النظامية فى بغداد » وكتبته بعد هذا البحث ، ونشر فى نفس كتاب « نبذ ومقالات » .
● وقد ترجمت هذا البحث أيضا ، وهو يشغل الفصل الثالث من هذا الكتاب .
(الترجم)

حريمهم ، كان يحمل الطابع الشرقي^(١) ، وكانوا يجوبون العلوم والفنون ، ويسعدهم أن يحيطوا أنفسهم بعلماء وشعراء من المسلمين .

ولم يكد هذا اللون من التعليم يضع أقدامه في إيطاليا حتى سرت عدواه سريعا ، فقد أنشأ فيدرىك بربروخا أول جامعة أوربية في بولونيا ، وهو أمير من أسرة هوهنشتوفن Hohenstaufen النبيلة ، وخلف كونرادو الثانى Conrado II على العرش ، وحضر الحرب الصليبية الثانية حين كانت جامعات الشرق الإسلامى فى قمة توهجها .

وفى قابل الأيام ، بعد مئتى عام على إنشاء المدرسة النظامية فى بغداد ، ظهر هذا النظام فى باريس ، وأكسفورد ، وكمبردج ، وغيرها وسارت إسبانيا على النهج نفسه فأنشأت جامعات بالثيا ، وسلمنقة ، وانتشر أيضا هذا الإتجاه الجديد فى التعليم ، وتميز بتدخل الدولة مشجعة ومنظمة^(٢) .

وفى إسبانيا المسيحية نلتقى بإحدى المتناقضات الفريدة التى تعرض فى التاريخ ، فقد تم إنشاء الكلية الإسلامىة الأولى ، التى تنفق عليها الدولة ، بتأثير من الجانب الأوربى ، وليس استعارة من المشرق ولا تقليدا لمعاهده ، والأغرب من ذلك أيضا أنها تعود إلى أمير

(١) الإلارىسى ، وصف أفريقية وإسبانيا ، طبعة دوزى ودى خويه ، المقدمة ص ١ .

(٢) تفسير نشأة الجامعات فى أوربا لم يثره فى نفسى أن هذه تلت الجامعات المشرقية فى الزمن فحسب ، أو الصلات التى أدت إليها الحروب الصليبية ، وإنما أيضا دراسة بعض الظواهر التى تصبغ لغزا إذا لم نقبل هذا التفسير ، ومنها :

● السرعة التى تم بها إنشاء هذه الجامعات ، وانتشارها فى غير تدرج ، ودون أن يجيء نظام الدراسة فيها وليد تطور متمهل .

● التناقض الذى نلظنه للوهلة الأولى بين الإعفاءات والامتيازات واللوائح ، والطابع العالمى ، والديمقراطية التى تحكمها فى العادات والنظم نفسها ، وبخاصة فى بولونيا أقدمها ، وكلها تومى إلى أنها مزيج من اتجاهين متناقضين لخضارتين مختلفتين فى جسم واحد .

● عادة منح الشهادات دون سابقة فى العصور الوسطى المسيحية ، لافى روما ولا عند اليونان ، فى الوقت الذى كان فيه الأساتذة المسلمون يمنحون هذه الإجازات منذ ثلاثة أو أربعة قرون خلت ، بنفس الشكل وفى نفس الطريقة التى كان أساتذة الجامعات الأوربية يمنحونها فيها ، فيما بعد ، وأصبحت فى أوربا امتيازًا محتكرا لما يزل قائما . فضلا عن ذلك ، فعند اليونان وروما وبين العرب ، وهى الشعوب الوحيدة فى العصور القديمة التى يمكن أن نعرف عندها مراحل تطور الدراسات جيدا على نحو دقيق ، نجد الدولة تنشئ الكليات وتنظمها فى عصور الانحطاط الكبرى ، وليست ثمرة تقليد ، أو مهنة لخدمة الدولة بطريقة مباشرة كما فى التجنيد .

ومهما يكن فهذه الملاحظات رغم أنها ليست بذات ثقل ، لا تزال تلج على ، وتقف حائلا دون أخذى بنظرية « التوالد التلقائى » التى تبدو فى أوجيها ، رغم عدم صحتها كليا ، انظر مثلا :

Gabriel Conmavré : Abelard and the Origin early history of Universities , London . 1893 Pa g. 26

حيث يقول : « لقد نشأت الجامعات من حركة عفوية للعقل الإنسانى » . وهى جملة جميلة لمن يفهمها ..

مسيحي ، ابن قديس ، وهو الفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، فهو الذى أمر بإنشاء أول كلية إسلامية فى إسبانيا ، فى مدينة هوسية ، وقد أسسك ذلك العاهل العاشق لكل ألوان المعرفة من أى شعب جاءت بعالم مسلم ، يدعى أبوبكر الرقوطى ، كان أعجوبة فى علمه الواسع الغزير العميق ، فهو يحيط بكل أنواع المعرفة على أيامه ، ولا يقتصر على العلوم العربية فحسب ، وإنما تجاوزها إلى العلوم التى تعرف بالقديمة ، من الحساب ، والهندسة ، والطب ، والموسيقا ، والمنطق ، وبقية فروع الفلسفة . والأعجب من ذلك أنه كان أستاذا قادرا على تعليم الطلاب من مختلف أديان شبه الجزيرة وجهاتها ، كل واحد منهم بلغته ، وقد أقام له ذلك الأمير الطيب القلب مبنى يدرس فيه مختلف فروع المعرفة الإنسانية التى يجيدها ، لطلاب من المسلمين والنصارى واليهود ، وكان الفونسو العالم يعامله باحترام رفيع . ويحاول اجتذابه بالمرتبات والعطايا والامتيازات ، ويراوده الأمل فى أن يعتنق المسيحية يوما ، وانهز فرصة مواتية فقال له : لوتنصرت ، وحصلت الكمال ، كان لك عندى كذا ، وكنت كذا . فأجابه بما أقنعه ، ولما خرج من عنده قال لأصحابه : أنا عمرى كله أعبد إلهما واحدا ، وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة كما طلب الملك منى ^(١) . ولايد أن ضجيج الشهرة حمل إلى غرناطة خبير هذا الأمير المسيحي الذى أنشأ مدرسة يتولى التدريس فيها عالم مسلم ، لتلاميذ من الأديان الثلاثة ، ومن ثم دعا أمير غرناطة ، [السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه ، وحكم من ١٢٧٢ - ١٣٠٢ م] العالم الرقوطى إلى عاصمة مملكته ، حتى يعلم الناس فيها من أبناء دينه ، ومع تكرار الإصرار ، والإلحاح

(١) ورد اسم هذا الأستاذ الشهير فى الطبعة الأوربية من نفع الطيب ، ج٢ ، ص ٥١٠ : القرموطى ، ولكن فى مخطوطة الإحاطة التى تملكها أكاديمية التاريخ فى مدريد ، ج٢ ، الورقة ١٥٣ ، يسميه : الرقوطى ، وأرجح أنها القراءة الصحيحة ، وقد كرر هذا الاسم فى ترجمته للفيلسوف المرسى الشهير ابن سبعين ، الورقة ١٣٩ من الجزء نفسه .

● الحق فى جانب ريبيرا فيما يتصل بضبط الاسم ، وقد وقع إحسان عباس فى طبعته لنفع الطيب فى الخطأ نفسه ، فذكر أنه القرموطى المرسى ، محمد بن أحمد بن أبى بكر ، ج٤ ، ص ١٣٠ ، وهو أمر تداركه الأستاذ محمد عبد الله عنان فى تحقيقه لكتاب الإحاطة ، فذكر أنه : محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، ويكنى أبابكر ، وفى مكان آخر أبابكر ، وأورد له ترجمة قصيرة فى حدود الصفحة ، والقصة المذكورة فى النص أعلاه ، وأوردها المؤلف فى الهامش ، منقولة عن نفع الطيب ، وهذا نقلها بدوره عن الإحاطة دون أن يشير إليها ، ولم يورد صاحب النفع شيئا آخر يزيدنا علما بهذا العالم العبقري الفذ ، وخارج نطاق الترجمة الموجزة التى أوردها ابن الخطيب له فى الإحاطة ج٣ ص ٦٧ ، وإشارتين عابرتين فى الجزء نفسه ص ١٦٠ و ٢٥٧ ، لم يرد له أى ذكر آخر . ورقوطى نسبة إلى رقوطة ، Ricate ، وهى بلدة أندلسية صغيرة ، تقع شمال غرب مرسية ، على مقربة من نهر شقورة .

فى الدعوة ، استجاب له ، وقرر أخيراً أن يتخلى عن خدمة ألفونسو العاشر ، وأن يذهب إلى غرناطة .

وقد تلمذ عليه محمد الثانى هذا ، وكانى ثانى الأمراء فى الأسرة النصرىة التى حكمت مملكة غرناطة ، وأسكنه بيتا جميلا تطوقه حديقة واسعة ، فى أجمل مكان من غرناطة [ويركب إلى باب السلطان ، عظيم التودة ، معار البغلة ، رايق البرة ، رفيق المشى] ، وكان منزله معروفا للجميع ، يغشاه الطلاب ، ويتعلمون على صاحبه ، « وكان قوى العارضة ، مضطلعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين متناىى حضرته ، ممن يقدم منتحلا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم ، لتمكنه ودالته » .

وبقيت المدرسة ما عاش الأستاذ ، وكانت الحالة الأولى ، وربما المدرسة العامة الوحيدة التى تدرس فيها علوم الأوائل عند المسلمين الإسبان ، وقد شاب إنشاءها أخطاء جوهرية منها : أنها تقليد واضح قوى للمدرسة المسيحية فى مرسية ، وأنها أنشئت من أجل شخص واحد ، وأنها كانت تدرس علوم الفلسفة ، ولم يكن المجتمع الإسلامى التقليدى ينظر إليها بعين الرضا أبدا ، وهكذا فإن وفاة الأستاذ أدت إلى إغلاق المدرسة ، وبقي تدريس الفلسفة ممنوعا ، وكذلك بقية العلوم الأخرى المتصلة بها ، وبإغلاقها لفظ اتجاه الدولة إلى التدخل المباشر فى شؤون التعليم آخر أنفاسه ولما يزل نبتة طرية .

وخلال ذلك كانت رياح المشرق التى حملت إلى أوروبا نظام الجامعات تحمل إلى أفريقية البذور نفسها ، ذلك أن رحالة الغرب الإسلامى الذين زاروا هذه المؤسسات فى مصر وسورية والعراق وغيرها عادوا مأخوذىن بروعتها ، ووفرة دخولها ، وعدد ومستوى أساتذتها ، وكثرة الطلاب ، وهم يشجعون بالمنح للإقبال على الدراسة ، وكان ذلك مجالا لحسرتهم أيضا ، لأنهم فى مقاطعات الغرب لا يقلدون ما يصنع رجال الدولة فى المشرق^(١) .

(١) انظر رحلة ابن جبير ، وهو رحالة بلنسى شهير ، طبعة رايت ، ليدن ١٨٢٥ ، الصفحات : ٣٨ و ٤٩ و ٢٧٤ و ٢٨٠ و ٢٦٨ ، حيث يثنى على أولئك السلاطين الذين يخصون المساجد والمعاهد بجانب من ثرواتهم ، وينشئون المدارس وينفقون عليها . ففى الاسكندرية يقدمون للطلاب الغرباء المسكن والأستاذ ، وفى حالات الضرورة يدفعون لهم أجر الحمام ، والخلعات الطبية . وفى جامع دمشق يوزعون الكثير يوميا على الأشخاص الذين يذهبون إليه ليحفظوا القرآن ، ويمكن أن تصور أى وقت كانوا يخصونه به ليحفظوه سريعا . وكان طلاب الغرب الإسلامى الذين يذهبون ليدرسوا هناك يمثلون ، مع أساتذتهم ، جماعة مستقلة ، وتجرى عليهم الأرزاق أساتذة وطلابا .

والشئ نفسه كان يحدث فى المدرسة النظامية فى بغداد . وقد أنهى ابن جبير ، الذى نقل عنه ، كلامه قائلا : « يرحم الله أول من أنشأها ، وكل من سار على خطاه من بعده ، وأحيا هذه السنة الطيبة » .

ولقد خرج رحالتنا الممتاز مدهوشا من جامعة دمشق بخاصة ، والثى أسسها نور الدين .

وقد عين يعقوب بن عبد الحق المريني ، أبو يوسف ، إسبانياً من كورة المرية واليا على مدينة فاس ، يدعى مفضلاً ، وقد حذا هذا الوالي حذو المشرك في إقامة الجامعات ، فأنشأ جامعة القرويين التليدة والشهيرة ، وأشهر جامعة في الغرب الإسلامي على الإطلاق ، ولا تزال حتى يومنا تحتفظ بشهرتها وذيوخ ذكرها ، وتفوق طلابها علمياً فيما يدرسون^(١) ، وفيما بعد قلد العديد من مدن الإمبراطورية المغربية جامعة القرويين في فاس ، واتخذت منها نموذجاً وقدوة^(٢) .

ولابد أن القوى الإفريقية ، وكانت تمارس لونا من الحماية في مملكة غرناطة ، جاءت معها بهذا التأثير في أيام الوزير الذائع الشهرة الحاجب رضوان الذي أسس الجامعة النصرية ، وأوقف عليها أراضي مثمرة ، تكفي غلتها لكي تدفع منها مرتبات الأساتذة والمدير ، وزود المبنى بكل وسائل الراحة التي يحتاج إليها^(٣) ، وفيها يدرسون القراءات والفقهاء وعلم الكلام والنحو والطب وغيرها ، وعرفت حياة مزدهرة إذا أخذنا في الاعتبار شهادة لسان الدين بن الخطيب^(٤) .

وقد احتفظ المسلمون الذين تخلفوا في الجانب المسيحي من شبه الجزيرة الإسبانية بالتقاليد القديمة ، غير أنها كانت في مرحلة انحطاط بالغة ، وبخاصة في أرغون حيث

(١) انظر : ابن القاضى ، جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، ص ٢٢٠ ، طبعة فاس الحجرية . وهذه الجامعة ليست إسبانية لأن مؤسسها إسباني مسلم فحسب ، ولا تزال حتى اليوم تتمتع بشهرة عريضة في كل شمال أفريقيا ، وإنما أيضاً بتقاليد الجامعة ، التي حملها إلى هناك علماءنا ، وبالكتب التي كانت تدرس فيها ، وحتى اليوم ، ويكفى أن تتصفح كتاب ج . دلفين : فاس ، جامعتها ، والتعليم الإسلامي العالى ، فسوف تجد كثيراً من الأخبار عن الطلاب المسلمين الذين درسوا فيها .

(٢) الإحاطة ، ج ٣ ، الورقة ١٥٢ ، وما بعدها ، من مخطوطة الإسكوريال .

(٣) الإحاطة ، ج ١ ، الورقة ١٥٧ ، مخطوطة الإسكوريال (ج ١ ص ٥١٦ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد عبد الله عنان) .

(٤) يشك دوزى في كتابه « ملحق للمعاجم العربية » ، مادة مدرسة ، أن هذه الكلمة تعنى في إسبانيا الإسلامية جامعة أو كلية ، لأن يدرو القلعة يقول عنها في معجمه أنها تعنى : « مكتبة أصول » . ومن غير شك يجب أن تفهم على أنها مدرسة في الفقرة التي أوردتها ابن الخطيب ، وأشرنا إليها من قبل ، وذكرها المقرئ نقلاً عنه ، لأن الإحاطة ج ٣ ، الورقة ٥٢ ، مخطوطة الإسكوريال ، يقول عند الحديث عن أستاذ بالجامعة الغرناطية : « وقعد بالمدرسة بفرناطة يقرئ الأصول والقرائن والطب » .

وتوجد إشارات أخرى ، في أمكنة أخرى ، من المصدر نفسه ، وفضلاً عن ذلك . فقبل إنشاء هذه المدرسة بكثير ، كان هذا اللفظ يستخدم في إسبانيا الإسلامية بمفهوم مدرسة ، وليس مكتبة . انظر : ابن بشكوال ، الصلة ، ص ٤٨٠ ، م . كديرة ، في ترجمته لعالم توفى قبل عام ٤٠٠ هجرية .

ظلوا يتمتعون بأكبر قدر من الحرية فيما يبدو ، أو لأن الظروف أعانتهم على تكوين نواة أقوى تضامنا ، وأشد اندماجا ، فواصلوا دراسة العلوم العربية من طب وفلسفة . وهم بعينهم المدجنون الذين أنتجوا الأدب العجمي « الخميادا aljamiada » فيما بعد ، أدب مثير ولكنه ذو أهمية محدودة ، واستطاعوا أن يتابعوا المستحدثات التي أدخلت أخيرا في غرناطة ، وكانوا على صلة وثيقة بها ، فأنشأوا لهم جامعة في الحى العربى من مدينة سرقسطة^(١) .

باختصار انقضت كل فترة الحكم العربى فى إسبانيا دون أن يبدو أن السلطات العامة تدخلت مباشرة فى نظام التعليم ، وكل ما هناك أنهم فى أواخر أيامهم ، عندما انحصرت الدولة الإسلامية فى مملكة غرناطة المحدودة ، رأوا علاجا ، جاء فاشلا ، فى عمل ألفونسو العالم ، ويجب أن يكون بطبيعته مرحليا وسريع الزوال . وفيما بعد عندما أخذت الدراسات « الأكاديمية » المجيدة فى إسبانيا تغرق ، أشرق تقليد متأخر على الطريقة المشرقية ، وصلنا عن طريق جامعات شمال أفريقيا .

وفضلا عن ذلك يجب القول أن هذا التجديد الذى أخذ طريقه إلى البلاد الإسلامية ، واحتفظ حتى اليوم بكل خصائصه القديمة ، لم يمس جوهريا نظام الحرية القديم ، والذى واصل طريقه فى الوقت نفسه ، ولم تصنع الدولة معه أكثر من إنشاء مراكز دائمة تسهل وسائل تعليم الشعب ، وليس مؤسسات ممتازة تتطلب تغذيتها الغلاء التعليم الخاص ضرورة ، وواصل الأساتذة منح الإجازات طبقا للعادات القديمة ، دون أن تأخذ مطلقا شكلا رسميا ، على النحو الذى سيصبح عليه الحال فى الجامعات الأوربية فيما بعد ، عندما أنشئ نظام يحتكر هذا العمل ، ويوقفه على غايات تربوية فحسب ، وفيه وحده انحصر التعليم الجامعى .

(١) بما أن شاهدى وحيد على وجود جامعة المدجنين هذه فى سرقسطة ، فقد رأيت من المفيد أن ألقية بيحتى مصورا ، إنه خاتمة كتاب ، ويعمل تاريخ ومكان نسخه فى هذه المؤسسة . ونشرت بعده أيضا صورة رسالة من طالب سرقسطة موجهة إلى أستاذه فى بالحيط ، يخبره فيها بحالته فى دراسة الطب وغير ذلك . وكلتا الوثيقتين تنتميان إلى مجموعة المخطوطات العربية الثمينة التى يملكها صديقى العزيز العالم فى فن العمارة بابلو خيل ، عميد كلية الآداب والفلسفة فى جامعة سرقسطة ، وتملكها اليوم « جماعة نشر الدراسات والبحوث العلمية » .